



ديوان العرب تقدم لكم

جهة المدينة وحليب النوق

حنيف يوسف

قصائد ونصوص

.... ويحب نافتها بعيري
المنخل اليشكري

في المقصورة الأخيرة لقطارات الضوء
اقتعدت هذه الكلمات طويلاً حصيرة من الشوك

أقنعة السهروردي ومدائح هيلين

بأجنحتها الخمسة وقاراتها الخمس
أطلق القصائد
إلى لعلعة حضورك الموشوري
على شكل أشعة لا بد منها
وألوان هي فوتوغراف الأوثان الرجيمة
والطقوس المقدسة
على شكل أشعة لا بد منها
تطلقين العنان لقانون الجاذبية
ومشيئة الأزهار في ممالك النحل البري
كي تلمس عيون الكائنات الحية
آثار الموتى قريباً من شوارع المدينة
وقريباً من كل شيء..
بأجنحتها الخمسة وقاراتها الخمس
أطلق القصائد
إلى صورتك الضوئية في ذاكرة «ميكيل أنجلو»
الذي جاء توأً الى عمارتي المهدمة
فوق ظهري؛ حاملاً إزميله المبارك
وكادت أن تلتمع عيناه الخبيثتان
حين وددت أن أطلق إلى وجهك ابتساماً متعبة

لأجلك؛

ابتكرت طروادة أحصنتها الخشبية
والأمم فرسانها الأشداء وحروبها الجبارة
وكذلك ذاكرتها الأثمة
لأجلك يا هيلين
يشهد القمر تحولاته
من قرص ناري إلى قوس فضة
ومن إبط عميق كوادٍ محذوف
من الجغرافيا في أقاليمنا الشمالية
إلى شفتين كرزيتين تتحدثان إليّ عن التعب

أو تضمران خوفاً سرياً من الرجال الجوف
وتكاثر الأويئة والعلاقات
لأجلك؛
أفتح أذني على مصراعيهما
أصغي الى الضجة الصامتة؛
لهذا الخوف الكبير وإلى موسيقا قدميك..
دعيني أمدح فيك مملكتي
و أتلمس بشراة بالغة
تناغم حركة الكواكب الأليفة إلى قلوب النباتات
تلك التي تؤدي التحية إلى البشر
كونهم بشر لو علموا
إني أكاد أن أكون حراً
أو أصاب بالدهشة أمام الجبروت الطيب
لانسجام البحار والمراكب
أو لتزامن الانتظار مع عينين تقولان كل شيء
عينين عميقتين جداً..
دعيني أمدح فيك مملكتي
أو أقدح شرارة من صوانة ملائكية
لأشعل سيجارتين واحدة لي وأخرى لك
ثم نتحدث بحذر مقصود يزرعه الشك بيننا
كي يصبح خوفاً احتياطياً تقتضيه أويئة الممالك
دعيني أرتب صممتي كما ترتبين عريك
أمام عيون الآلهة وفي مرأى من الظلام
وتفضين بسرك إلى بياض كامل
يثير الشهوات المخبأة في قميص الجسد
دعيني أطلق عليك أسماء نسائي كلها
وأسماء مدني وقراي
أسماء أعشاب الطبيعة
وأسماء البحار الحية
وسرطانات المياه العذبة؛
وأشجار الأحرش الجبلية
وأختار منها ما شاءت أرواح الممالك البائدة
والرياح السيارة

وأضم ما ملكت يميني منها
إلى جداريات المعابد البازلتية في قاع دمي
حيث لخطوك وقع الموسيقى الصامتة:
وكل وقار الخزامى في جبال الأكراد
وانسجام الطبيعة في لحظة عبقرية..
لخطوك إيماءة الغزالة العاشقة وتفتح الأعشاب البرية
لخطوك رومانتيكية الأمجاد العظيمة
وقوة انبثاق المطر من غيمة جرداء في لحظة رغبة

لم أتصور أن العالم جميل كل هذا
قبل أن تصيبنني ضربة شمسك الحاسمة
ربما في غفلة منك
كما أنني لم أفترض كل هذا المقدار العظيم
من الثراء قبل أن ألمح شفافية إبطيك
على بعد ثلاثة أمتار من فنجان قهوة أعدتها لي يداك
أنا الذي لم أستطع يوماً أن أفرق بين اليأس والحلم
أو بين الحروب القائمة على ضفة الأغاني؛
والقبلات القادمة إلى كأس شفقتين
استطعت اليوم بكل بسالة
أن أقع في ظلال خطواتك الغزالية
وأن أسمع - و كأنه لأول مرة في عمري -
إيقاع طيوفك البلورية على صدر هذا العالم

لئن كنت كائنة بحرية منذ أن أصبح أارات جبلاً
ومند أن أصبح بلدي صقراً قارياً
يحوم في فضاءات الرعب المقدس
فإنك أشبه ما تكونين بدلفينة المياه العميقة
وإنني أستحصل على متعتي القاسية
حين تقفزين أعلى من الموج بأكثر من قامة ملحٍ خفي
و ذكريات غريقة
هيلين

لئن كنت بحرية وشفافة
فإنني أتذكر من بعيد الكلمات اليائسة
والجميلة التي قالها لك «شيللي» وهو

يعوم صعوداً وهبوطاً
كأسطول سابغ في عرض المياه الأثمة
ربما لا تعرفين تماماً أسرار القدر الأعمى
فأنا الشيطان الأزرق الذي يتربع قرب جفنيك
على شكل أقواس داكنة
كلما انتاب التعب ذاكرتك

حين تشير سبابتي
إلى الاتجاه السابع لجغرافية جدواك الخلاق
أكتشف مدينتك السهروردية
صدرك عبق الفل؛
حبق شهوة مفاجئة وانسياب الأشياء النورانية
صدرك رائحة وطن بلا موتى
صدرك ميدان المعارك الضارية
بين أسماك الضوء وأسماء الطبيعة
أكاد أن أحتار من أسماء وجهك الحسنى
وإنني لأختار تماماً
الأشد فتكاً بزهو الفراشات
أختار يا هيلين «الفتنة» لأداء فريضتي الشيقة التي
تستدعي ملذات الأساطير المجنونة على مائدة ضلوعي المكسرة
وسفوح الرغبات المنفلتة
من عقال البجعات البيض
والجراح المقدسة لأمم تباد بالحماسة
أيضاً لأداء فريضتي الشيقة كناسك صغير
والتي تستدعي أجنحة الكائنات الخرافية؛
كي أمتطيها بعيداً عن الجواري
عامداً متعمداً
أقصد سهيل عرييك المتفجر
عبر ملكوت السموات والأرض

يمكنك الافتراض تماماً
بأنني طفلك الذي في غفلة من القدر
خرج من رحمك الجبار دون أن يعرف أحد سلالته
وأشبهه ما يكون بسراب؛

ودون أن يتسبب لك بالأم طلق بأئسة
أو أني رجل ضوئي ابتكرته القوى الخفية؛
ساعة غرق رجل يدعى «يوسف» ومعه
عاشقة تدعى «القديسة زليخة»
كما يمكنك الافتراض أيضاً
بأنني رجل يبلغ من العمر عشقاً غامضاً؛
يعود تاريخه إلى شتاتك الخامس عشر حتى
ربيعك الخامس عشر بعد الألف
يمكنك افتراض ما لا يفترض
فأنا البري الشرير الذي يحمل قصيدته في يمينه؛
دون أن يدري أنه في يده الأخرى يحمل موته
و هو يجتاز غبار الصحارى البعيدة
يمكنك افتراض ما لا يفترض
فأنا الرجل المبالغ الذي لم يأبه كثيراً بحكمة الفيزياء
أجيبك
لأحظى بشعلة النار المقدسة
من خصبك الإلهي المبارك
وأطوف ممالك الدنيا
أدعو الناس جميعاً إلى الحرية الكبرى في تظاهرة أولمبية
كأنما عرس الآلهة الجبارة

حلب؛ أيار 1993

الرجل الغريب

أنا الرجل الغريب
أعض لساني
أغني نشيد عمري؛ والنشيد الوطني لإنشادك
أنا كفن أعطيت جثة متحركة
وأعلن بياضي كتلج قابل للهبوط إلى المنحدرات
أبتكر حبك في طريقي
بأن يتسع مجراك العظيم لأقدامي العارية
أنا الرجل الغريب
في هذا المنتصف الضيق من الليل
أبتكر حبك؛ بأن يتسع مجراي ليديك المديتين - إن شئت -
إلى آخر حدودي
أنا من يؤنسه هيجان الفصول وقهر الخريف
أؤخذ مؤخرة أيامي بعصا الأنبياء
كلما هبت العصافير من أعشاش الفرح
أؤخذ كلماتي؛ كلما هب دمي من نزيفه
أقصد كلما هب لحبك
أتعرفين
أن أيامي تكون جميلة
حين توازي إطلالتك الخاطفة؟
وأن نهراً مهجوراً بكامل رمله
يستطيع أن يحكي تاريخ أمة؛ ويستطيع أيضاً
أن يصب في ارتباك رجل غريب
ويصنع «بحيرة البجع» في قلبه؟
إنها أشياء متناهية في الصغر
حين أسير إلى العطش قرب نهر طويل
إنها أشياء متناهية في الألم
أنا الرجل الغريب
سأقول للصمت اللطيف لزغب إبطيك
كنت شوكياً أو ممزوجاً بالدبابيس

حين تناهبتني لعنات القوم
وحاصرته حقول ألغام زرعتها فنران الكلمات والقبائل
فضقت ذرعاً
هربت أحمل خطواتي وطفولتي الرجيمة
انتفاض فتوتي
تقلص العظم في جسدي
هربت؛ لأعلن انتصار ديوك الظلام وأشباح النهار
- يا لسواد وجهي -
وأعلن مهزلة الدنيا

عمان 1993

ذكريات الزمن.. حالات المكان

لقبضة ريح
وحصاد يورق الليالي
كانت الكلمات تنشئ لغتها
والرجال ينشئون مناجلهم الرخوة
الحصادون تماماً
أطلقوا العزم على النسيان
فكانت السنابل تتابع انحناءاتها
تناثر الحب ونورج الموسيقى
أطلقت الريح عاصفتها
والكلمات عاصمتها
فكانت مدينة الصمت
«الصمت» أيتها المدينة
لكنه أيضاً
الجانب الآخر
الحرية الأخرى؛ الوطن الآخر؛ النساء الأخريات
الدنيا الأخرى والسادة الآخرون
و كذلك
المسائل الأخرى؛ ظلال النجوم؛ هيلوى الحيوانات المنوية
والأعناق الطويلة كصواريخ جائعة
تريد أن تعبر القارات
المنجمون ومفسرو الأحلام
قراء الفناجين والجرائد
أقول الرغبات إلى أصغر حالة ممكنة
شموخ الخواء كمسلة فرعونية
هبوط القصيدة
كطيار يكتشف خللاً في المحركات بصورة مفاجئة
كذلك يكون الأمر
حين تعود العصافير من المساءات
خائبة المناكير

فارغة العش
والبحر يعود إلى شاطئه
منكسر الموج
عالي الهمة والزبد
تعود القصائد إلى أصدقائها
بكل ما تملك من ياسمين
أو من حصيلة دمي في الانخراط بالرغبات
لفمك الممتلىء بالصمت؛ وجيوبك المحشوة بالوعود
لعويل الغبار؛ وهدير محركات الأزهار الصناعية
تخرج القصائد من جلدتها
حزينة بالأم السلخ؛ فرحة بأمجادها المحجوبة
دون أن تطلق استغاثة؛ أو ضحكة دون سبب

حلب 1991

إليها كما تجلت

حين في الشارع تماماً
تطلقين شعرك لبرد الخريف
وأصابعك ليدي الهائجة
تدور على الباغي الدوائر والموبقات
وأنا أودع في صدرك آخر ما تبقى في كفي
من زهرات الياسمين
وحين يتبعنا غبار الطرقات
وكذلك صفير الريح وعيون المارة
وكما يلتهم ذئب جائع فريسة مشاكسة
أكون قد التهمت نبض أصابعك
الصفصافية في يدي
كما نارك تلتهم أحراش الياسمين
الهشيم على تخوم صدرك المدجج
بهاوية الشهوات والأزمة

حلب 1992

سفر

أسافر مع وجهك
أينما حملتني الريح بيديها العاتيتين
أسافر مع وجهك الملائكي
أينما مضت السفن والمنامات
أسافر مع وجهك الملائكي الشيق
أينما رحلت في فراديس خصبك المغمور بحزن جميل
أسافر مع خصلاتك المكتظة بظلال أصابعي المرهقة
أينما ألقى الأقمار والشموس بساطها
أسافر مع قدك الطيفي وشهوات نارك الخفية
أينما ألقى الأشجار ظلالها
ومع موسيقا شففتك
أسافر
وأستقل قطارات تعبي

حلب 1992

ملاحظات حول ما يسمى القلب

زمني ينزف
وأصابعي لم تخذشه
القمر ينزف
كأن وحشاً عضه في خده
أنا في حالة خطرة
أصابعي تنزف
كأني كسرت جرة الزمان الزجاجية

كطير جائع أتأهب إلى الدنيا
وبشكل مفترس
أستعد للوثوب إليك

أختبئ في شمس لا ظل لها
أطير إليك عارياً
أفر إليك من هذا الصقيع الممتد
إلى ناحية الأرض
أزحف إليك
بكامل رجولتي وذعري

بفم مكبل أحدثك
عن الحب و الزنازين
وعن محتوى عينيك
ويديين مكبلتين
أناديك تعالي

هنا قلبي يتفصد
قطعان الأشباح
تعلن هزيمتي

و لكن ماذا أفعل

إذا كان هذا القلب
يلعب معي لعبة الفأر والقطة؟

حلب 1992

موت الأشجار

... كذلك بالنسبة لقلب مكسور
سيكون من الصعب أن يصبح وطناً حراً
وأيضاً
بالنسبة لخطيئة كبرى
سيكون الأمر مرعباً
حين تتحول إلى رسالة ملائكية
وكذلك
عن حب عظيم
من الصعب أن يصبح صغيراً
حين يمشي على قدمين عاريتين
وكذلك بالنسبة للأشجار
حين تنجب جراثيمها
من الممكن
أن تبني الجراثيم أشجارها
دون أن تنتقم الشمس من ظل بانس!

حلب 1989

المرأة المحايدة

أخيراً
استطاعت أن تقول لي - المرأة المحايدة بعينيها الحزینتین -
استطاعت أن تقول
- و بصوت أبعد ما يكون عن اليأس -
هنا جسدي يتفجر كلمات؛ ونزق مساء مضي
أتعفر في نظراتك المكسورة
كعنق وردة هجرتها الفراشات
نظراتك المتفشية في أنحاءي المرتبة على شكل فوضى
كم زمناً سيمر كقافلة عابرة
على وجهك ليتخذ صورة مائية؟
واستطاعت أيضاً أن تقول بفمها المحايد
هي الهیولی أشياء الدنيا
هي السيول كلماتك الساقطة على شعري
كمطر خريفي

حلب 1990

1993 يتبعه الغاؤون

لا شك أنك تعرفني
وإن تجاهلت الأمر يا سيدي
أو يا «سيدتي»
وأذكر أننا تقابلنا
كما يتقابل الشيطان مع الشيطان
وأذكر أننا تعارفنا
كما يليق بأناس من القرن العشرين

لا شك أنك تعرفني إذاً
لذلك تبقي هاوية الآه بيننا - وأشهد لكائك هنا -
فالشعراء أخطر من الأوبئة
وكذلك الفقراء؛ ونساء الروايات العظيمة
وأميرات الكروم
كذلك جنيات البحر؛ جميلات الأرض الأسخيلوسية
ربات أنشاد سليمان وهن يعبئن الجرار بالخمير وماء
الخطيئة

للريح الأفقية في شهيق جريح
وحكمة الأوجاع القاسية
للأحلام المربعة والمستطيلة
يتقدم طائر بجناحين كبيرين؛ ممزق
الصوت؛ متعفراً بالغيوم وعري السماء
يحاول ألا يهوي
ما أصعب أن يهوي طائر بجناحين كبيرين
في الوحل يا سيدي

وتعرف أيضاً
أن مواسم عكاظ ذاكرتي
وأنت وأدت عشيقاتي الواحدة تلوى الأخرى
وإنني الآن إثم أو وباء
ولو سئلت كأني موؤدة؛ بأي ذنب قتلت

لأجبت
لأنني «رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر
يسجدان لي»

ومع ذلك
أفتش عن خليفة عادل كي أمدحه
وعن امرأة عادلة تحكم مملكتها بحد الشعر
وحرية الشبق
أفتش عن وطن عادل؛ يعفيني من الجوع والبرد
والموت اليومي؛ ويعفي نفسه من عناء مطاردتي
أنا العبد الفقير على عتبات ثلوج ملحية
لا تعير انتباهاً لبلوغي سن اليأس
من الجواري والغلمان وبيوت الماء والمال
أنا المتأبط ساعتني الرملية في هذا الوقت
الخرج من أزمنة البورصة
وسوق الأسهم الصاعدة

ولأنه
ليس لي الأهمية الكافية
كي أعبر عن مشاعري وبلوغي الظلمات الناصعة
أو أطل فارساً مكسور الرمح على نزق امرأة
تحلم بيخت خشبي أو رجل سعيد
لذلك أرجو المعذرة منك
فأنا ابن تلك السلالات القادمة
من قرعة ضلوع الأميرات الطبيبات
الحاملات عناقيد العنب
وعناقيد الغضب عليك
ذلك أنك تركت طائراً بجناحين كبيرين
يسقط في الوحل
كسائر هذي الحشود الأدمية الجرارة

عمان 1994

خمس دقائق

لن أقول سيدتي
أو حبيبتي أو امرأتي
أحاول أن أجردك من الصفات الكئيبة
كي أزاول معك الوقت
وعادة الحب دون صفة؛
أو تباه أمام المرضى
أعرف أنك
ستسامحينني - كعادتك - على أنني لا أتقن
دوري في أداء ما تقترضين
وليس لدي الذكاء الكافي؛ لأكشف عن خوارقي
وأستأثر بانهيارك البريء من وطأة المعجزات
ليس لدي الذكاء الكافي
لأخرج من كم قميصي ثعباناً ملوناً
أو من فمي طابات بيضاء كالسحرة
ألا يكفي أنني أراهن على عبقرية شهواتك
كي تكشف لك
كيف أنني مليء ببثور كحلية تدل على ملامحي
وتعطيك الموجز عن معنای الرجيم
أعرف أن البثور تدعوك إلى الغثيان
وأن قلبي ليس بمستوى افتراضك المضيء
ولكن ما ذنبي أنا
إذا كان واجب الحرية يدعوني إلى حبك؟
لا أستطيع أن أقنعك بهذا
ليست لدي مؤهلات الحب
- إن كان الحب وظيفة -
قد تقول لجنة ما - أقصد لجنتك -
أنه غير لائق؛ أو عديم الأهمية
ولكن.. بربك
متى كان لمثلنا أهمية؟
وأكرر..

وجهي حقل البثور الموجهة
وأعلم أنك تشعرين بالغثيان من هذا
ولكن من أين لي الحرية الكافية
كي أقشر بثوري دون أن تدمع عيناى
لا أستطيع أن أقنعك
بأنه ليست لدي الحرية الكافية
في أن أحظى برعاية شفقتك الحكيمتين
قبل وصول الفقهاء إلى حزني
امنحيني خمس دقائق فقط كي أبرهن لك
أن النزال بيننا لن يكون عادلاً
لأنني بصراحة تامة؛ أطلب منك
القضاء على كل ما يثير فيك من واجبات
المرايا وحقوق الناس
إمنحيني خمس دقائق من اكتبك المر
كي أعرفك بنفسى
امنحيني خمس قارات أخرى؛ ووطناً اضافياً
كى أعدك بأننا سنمارس حبنا
دون خوف أو مجاملة
امنحيني شيئاً بسيطاً من هيولى ريقك
أو مائك «الزمزمى»
كى أبرهن لك
أن النار اللئيمة تستطيع أن تحرق أوراق
توتك الخضراء
وأن أبرهن أيضاً
أن النار ذاتها
كفت أن تكون برداً وسلاماً لكبار القديسين
وكذلك لك
لك أيضاً

عمان 1993

حدث في مدينة ما

-1-

كانت السنة تطل بفصولها الأربعة
حين نحيت عن موقعي في مملكة الأشعار
وكانت الأرض شبه عارية
- كما النسوة على شاطئ بحر الشمال -
كانت الأزقة خرساء أو صاخبة
وكان ضجيج الانهيارات يتوالى في حركة مبهمه
في جسدي
لم أعلم أن رأسي كان ساحة المعاني
وقد أطيح به متشبثاً بكتفي
دون أن يتدحرج في منحدرات الوديان السحيقة
كصخرة سيزيف

-2-

وأذكر أنني أضعت الكثير من الوقت
والأصدقاء والكلمات:
الوقت الذي سرقتني من حبيبيتي جهاراً
الأصدقاء الذين قضوا في حروب غير متكافئة
من أجل الحرية مثل اللورد بايرون
والكلمات التي احتمت بملاجئ الخوف
وأسلحة العاطفة

-3-

وأذكر أنني لم ألاحظ طواحين الهواء
وهي تدور وتدور
ولم أر حقول الأزهار والورود على
مختلف ألوانها البرتقالية والبيضاء
لقد خفت من البحر كثيراً
ولم أذهب للسير أو الجلوس على شطآنه

كانت الفروق بين الفصول تتلاشى
وكذلك بين الليل والنهار
كان الربيع - على سبيل المثال- أقل أهمية
رغم حاجة الأرض لذلك
وكانت الرياح تكس ما جادت به الأشجار
كالعادة
كان الحر ثقيلاً على أنفاس العجزة
وكان المطر طويلاً جداً
- حيث قطرة واحدة منه
أطول من أي رجل في العالم -
لم أكن في عطلة رسمية كي يغيب عني
كل ذلك

لايدن- هولندا 2003

سحب بودلير

السحب الثقيلة

المفمعة برائحة الخراب

السحب المشبعة بالرعب والعزلة

والابتكار

سحب بودلير التي اكتشفها بعناء شديد

مثلما اكتشف كولومبس أمريكا مصادفة -

السحب التي ظهرت ظلالها على الرقم الطينية

للإنسان القديم

وكذلك في صحف إبراهيم وموسى

السحب التي أعرف لونها في الأسئلة الموجعة

أسئلة الوطن والأهل والأصدقاء

السحب..

ما زالت باقية في عنان سمائنا

سحب بودلير اللعينة

لايدن 1998

تعارف

إلى هورتوس بوتانيكوس

لقد جئتِ إلينا؛ حين عبرنا البوابة المطلّة
على اتساع كل ما هو أخضر
لقد جئتِ إلينا،
حاملة بساتينك البرية في جهات الأرض
ربما لنندهش من عبقريتك!
كيف استطعت أن تزرعي كل هذه
النباتات المختلفة
والأشجار الطويلة كأعناق الزرافات؟

نحن يا سيدتي
رجال هدهم التعب، ونساء أنهكتهنَّ
تداعيات السيرة الذاتية لنبلأ لم يذكرنا
بأي شيء من الافتخار
لقد جئتِ إلينا
أو جننا إليك - لا تكلف بيننا -
نحن أيضاً، لنا تفسيرنا لمعاني الكتب المقدسة
وقصائد الشعراء
نحن أيضاً، لنا طموحنا في مزاوله الحب
وارتياد مقاهي الرصيف والمطاعم الفاخرة
مثلك نحتاج الماء والغذاء والضوء
أرأيت كيف أننا جننا إليك
كي نرى - إسوة بالآخرين -
عادتك في العلاقات الحميمة
نحن الذين يفضل لنا أن نؤمن بالقدر؟
التاريخ لا يهمننا كثيراً
فنحن قادمون منك
ونستطيع المجيء إليك
وبذلك نواصل رغباتنا في الحب وشيء من الأمان
هل يهكم أن تعرفينا؟

نحن أمة أتعبتها كثيراً معاني الأشياء والأحلام
وكذلك رياح البكاء والخوف
الكثيرون قبلنا خاضوا حروباً طاحنة
والكثيرون ما زالوا يبتكرون الحروب
إن ذلك لمؤلم حقاً
ولعلمك نحن أيضاً
لنا نصيبنا من الألم لأننا ننتمي إليك
نحن الذين لا نفرح كثيراً
نجيء إليك لنتعارف ونتبادل أرقام الهواتف
هل لك رقم هاتف خاص؟
نحن أرقام هواتفنا قصائد على جدران المدينة
نمر بها حاملين نصيبنا من التعب
متعبين أو غير متعبين
نروح ونجىء تحت ظلالك الممتدة
على وجه الشمس
نحن رجال ونسوة لا تفرق الشمس بيننا وبين سوانا
حين ننفض عن وجوهنا غبار الصمت والهلاك

لايدن – 2004-3-29

بصراحة تامة

بصراحة تامة وقبل كل شيء
حين يطلع القمر كزورق فضي
أو كبرتقالة مقشرة
وأيضاً حين لا تطلع الكلمات مني
أي حين أصبح اللسان المقطوع للأشياء المدمرة
بصراحة تامة
حين ترتدين تنورتك الزرقاء
وتصل السماء إلى ركبتيك
وتكونين مغمورة بقميص بنفسجي، والأزرق، والفوضى
وأيضاً مغمورة بشكل عام
تكونين متوجة في كأميرة، تعبدك كل كائناتي الحرة

حلب 1989

فتح مبین

حين يكون العالم مغلقاً
وليس أمامي إلا الخوف عليك
أفتح نفسي
للبراكين المتفجرة في جسدي
وأحترق
أترك ورائي رماداً وكلمات
و حين أكون مغلقاً و ليس أمامك إلا الخوف عليّ
أفتح العالم
للتلوج البيضاء، ورايات عينيك
وأناشد صمتك العميق
أناشد وباء الفرح
غنّ لقبله غير خائفة!!

حلب 1989

فروق

ثمة فرق كبير بيني
وبين من يصنع القنابل
فأنا لا أصنع القنابل
ثمة فرق كبير بيني وبين من يشي
بالناس - حيثما تيسر - لأنهم ليسوا
من أتباع جنرالات الجيش الميت،
أي أنهم لا يسيرون في موكب فرعون
فريد من نوعه
فرعون لا يعرف كيف يبني أهرامات
في صحراء الضحايا
فبيني بدلاً من ذلك
مراحيض من ذهب
ويصنع بنادق من ذهب
أما أنا فأصنع اللغة الأكثر قرباً
إلى هندسة الطبيعة
لأصف بها السجون المخبأة تحت الأرض
السجون المنتظرة لمجيء الحرية
وَأدعو الناس إلى الكلمات المنبثقة
من أفواه الجوعى والمعتقلين من أجل الكلمات
ثمة فرق كبير إذاً!

لايدن - 2003

قوة النار

أخوض غمار الكلمات
سعيًا وراء معنى أفضل لمشية
الطيور على سطح الماء
ومعنى أفضل لحبنا يا امرأتي
كيف لي أن أمكث تحت الرماد أطول مما فعلت
أو أطول مما فعلوا بي؟
تمنعتني عن ذلك قوة النار التي كان المجوس
يرقصون حولها
أنا الذي اعتدت طويلاً أن أغمر وجهي
بالرائحة الحبقية لحمتيك، قبل أن أذهب لكتابة قصيدة
اعتدت أيضاً أن أبقى في ذاكرتي
ما يقال عن عناد صخري لشعبي
أخوض غمار الكلمات
وأنا أعرف أنني
حين كنت أسير في الشوارع، ملطخاً
بالتعب والأوجال
كان الناس يتجنبونني وكأنني وباء
لم يكن أحد يجلس إلى طاولتي في المقهى
ولا إلى جانبي في الحافلة
لم يكن أحد يطبق رؤية منظري الرث
من البعيد، كان الناس يأتون إليّ، بينهم
الكثير من الموتى، يأمرونني بالمعروف حيناً
وبالمنكر حيناً آخر
ثمّة أقوام تعد كل شمس تشرق، شمسها
وتعد كل من يعتلي العرش ملكها
وذلك دون أن تخاف الله إلا في السر
أخوض غمار الكلمات
وأنا أنفض آثار الانهيارات الطينية
عن جسدي
أليس الجسد من طين كما يقول الأنبياء؟
وأعرف أن اللغة أغلقت أبوابها دوني

مثل العديد من الأصدقاء
كنت أظن أن أبواب اللغة والأصدقاء
مفتوحة لي دونما موعد مسبق!
أنا الأكثر جنوحاً نحو الحزن والاحتجاج
فرح بما آلت إليه أموري مع الحرية
وبما أنني لست النبي سليمان كي
أخاطب الطيور والنوارس
لذلك فإن أرجح الظن أن كلماتي
لن تمتطي بساط الريح إلى بلاد
تمنع لغتي من التداول

لايدن – 2003

الموظفون الأصدقاء

إلى دي فونك *

سُرقتُ من البيت مرتين
مرة على يد الجلادين، عنوةً
ومرة على يد أصدقاء موظفين، بسهولة

الجلادون سرقوني من البيت، لأنني
كنت أحب البيت والكتب والناس
والأصدقاء الموظفون سرقوني من البيت
كي أنسى حكاية الجلادين
وعند انتهاء الدوام الرسمي
لم يتعرف أحد عليّ - ربما لأنهم كانوا موظفين فقط
ولم يكونوا يوماً أصدقاء -

حين كان الجلادون والسفلة يتنكرون في هيئة
مصباح كهربائي، أو ينتشرون في عتمة
الليل على السرير، وفي الأزقة
بسيوفهم الحادة ودباباتهم الكبيرة الحجم
لم يأت أحد من الأصدقاء المذكورين لنجدي
أو ليس الواجب أن ينصر الصديق
صديقه عند الحاجة؟

كانت الأشياء تتوالد مني بغزارة
وكذلك الأقارب والمرضى وضحايا المعتقلات
كالحيوش الجرارة
كانت تختبئ في ثيابي، الخارجية منها والداخلية
ومن ثم تقنحم جسدي
وفي لحظة ما، وجدت الأشياء ذاتها
تتوالد من حبيبتني النظيفة تماماً كقصيدة نبيلة
- عليكم أن تحكموا بأنفسكم على مجرى الأمور
في هكذا معركة -
وكما تعلمون فإنني لست نبياً كي يرسل الله
جنده مناصرين لي

لايدن- 2003

* دي فونك: أحد المصحات النفسية القريبة من مدينة لايدن الهولندية

أول أيام السنة

حين الأيام تبتكر أشياءها
والشمس عنب الصباح
تبتدئين زحفك الخفي إليّ
حين لا يكون على الشجر سوى العصافير
وفي الأرض سوى الخير والشر
تكونين شريرة للغاية
ونصير الوجه الجميل للمطر
وحين تكون المدن أزقة موحلة
وأرصفة مكتظة بالأشباح
تصبحين الشتاء الجريح لوطن يتألم
وفي ساعة ما
تكونين العالم وأشياءه
يضعك القمر، ويقتلك أشباهه
وتدخلين الدنيا بكل ما تحملينه
من عبء الندى على العصافير

حلب 1988

الغزو

أغزوك حلماً، وعداً، ضياعاً وتعاسة
أصير آخر من تصلين له صلاتك الأخيرة
بكتافة أنتشر فيك
وأمطر رأسك بأوهام جميلة
ومجد من ضباب
بحماس قل نظيره
أنظر إليك
شاحبة أو متسعة تكوينين، وذلك
حين أفتح لك أول صفحة من سيرة العمر
وحين أيامي تسقط بينك وبين الشجر

حلب 1988

قبلات لنا وصباح للبلاد

ردي عليّ السلام والقبلة والجنون
على شرفة المساءات الغائمة
وعلى شرفات وجهك
على المعاني الغامقة لشفتيك ردي
وأدعوك تعالي ننظر إلى القمر
ونمسح عنا غبار الطرقات بعد ركض طويل
لأنني بعد يوم
أو وردة أو وطن
سأملأ شاحنات الرحيل بالمطر والهجرات
وأشحن القبلات إليك مع كل ضجة للغيوم
والبروق والسفر
ردي، فحين يشرق وجهك بفم ملتهب
و تندلع الفراشات من يديك الناصعتين
كالأغاني
و يرتجف نهدك الساخن قرب يدي - حلاًماً أو حقيقة -
أقول في عبي - و أنا أقصد أن أقول لك -
أعطني فمك الملتهب لأحرق شففتي
وألقي رمادي بين عيون العالم
ردي عليّ الأشياء وروداً عارية
وسماء تسقط عليك قبتها بالأزرق
فأنا على أرائك العمر
لا أنتظر سوى فراشة تشبه نزقاً حراً
ووجدان قصيدة
وعلى تقاطع الشوارع والكلمات
أنتظرك
صباح الجحيم أيتها البلاد
هكذا يقول المتسكعون في الأزقة
صباح حبنا الخائف أيها الناس
هكذا تقول الطيور المجنونة، وأيضاً هكذا

تصمتين كالموسيقا الصافية
تضحكين بعينين متسائلتين
ولكن...
سأدفع مهرك قلباً وقصائد
وإسواره من قوس قزح

حلب 1988

بِمَ أَتَفَاعَلُ؟

- أيتها الوهم العظيم، حين كنت في قاعات حلمي
تصطاد العصافير كنت شجاعاً وانتصر
وبعد أن قبضت عليك ذات موت خاص
أيها الشيطان اللذيذ، وجدتني ويا للمصيبة
مهزوماً شريراً... -

بعد حروب شديدة على الورق
وآلام مبرحة في ظهر القصيدة
آخرون يفتشون عن القتلة بين زنادهم
وآخرون يفتشون عني بين خوفهم
ولكي أخرج من مدارات خوفاً
عليّ أن أعشق امرأة لا تجيد صناعة المطر
نقتسم الأشياء بشهوة

شهوتي تقسمت بين فكي الوطن
وانتصفت مثل شهر بائس
أول نصفني قمر بردان أغطيه بالتعب
والرغبات
والآخر أمر عسير
هكذا إسراء توجسي قرب
جدار المهزلة
وقرب انهيار الحرية أمام الخوف كنمر جائع
وهكذا أمام ادعاءات ليست إلا!
وأمام قصيدة ليست إلا!!

حلب 1988

دبكة

أراك تماماً
ترقصين وفي يديك أزهار الياسمين
في يديك أساور ارتباك وقلق
ترقصين، وفي سفوح صدرك ضباب خوف
واشمئزاز فضي
وبعض الشيء، تبالين بالوقت وشهوة غامضة
وأرى تماماً
ممثلين هزيلين على الخشبة
وأنت تفضلين الموسيقى الصامتة
والأغاني الشعبية الأكثر حزناً
وكذلك الحب الصامت
وأرى تماماً
كيف أن الأقدام تعبت، والنسوة والآخرين جميعاً
وكذلك الشهوات العابرة
والأعناق العامرة بالمزايدات الثقيلة
تعبت القلوب المتورمة بخطاياها
لكن شيئاً «غامضاً» لم يتعب
شيئاً «طائرياً» ، خفيفاً «متيناً» تماماً!
وتسألين: من أين لك هذا الياسمين؟
أقول: وحق الله إنه ليديك
أيمكنك الافتراض أنني لا أستطيع أن أقطف لك
حتى باقة ياسمين
وأنا الذي أعرف تماماً، أن الأشجار بكامل تربتها
تستعير سرها منك
وتستعير منك الرسائل الكبيرة نفحتها الخلاقة
وأعرف تماماً
أن الأسرار تستعير من عينيك قوتها العظمى
ومن اتقادك الرباني تقيم الأقدار دولتها العظمى
والأمم مجدها العظيم

ويمكنك أن تتذكري...
كيف أن القبائل والأصدقاء قد رحلوا
والكوارث مازالت تمطر، وأنا جدار طيني
لم يشيده البدو في أي صحراء من بلاد العرب
ويمكنك أن تتذكري
أنه لم يبق إلا الطريق إلى «هكاري»
والتقرير إلى «هكاري»
ولم يبق إلا هذا الياسمين الأبيض تماماً
وأعلم أنه يستعير رائحته المكشوفة منك
ولكنني

سأتابع المديح هنا
وأتابع غموض سرك كوطن مستقل
وغموض حبي كما لم تذكره الروايات العظيمة
وأقول

إننا لا نملك حكمة الأشجار الأكثر حنكة
حين تكشف عن عريها فصلاً كاملاً أو فصلين متتاليين
لذلك نلجأ إلى الخوف، وإلى مسيرة ألف ميل
كي ندخل سرير العالم
إذ أننا نريد أن نرى أحلاماً نرويها كحكايات
جميلة مع سيجارة وفنجان قهوة في الصباح!!

حلب 1988

خريف كامل

أما أن أن تفتحي بابك الموصل
أمام وجهي المكسور؟
لقد مضى وقت سقوط الأوراق من الشجر
وما زالت ذراعك بندقية صدئة
في وجه الخفافيش
وأضيف إلى علمك
أنني تعريت بمناسبة ودون مناسبة
لذلك لا أستطيع أن أعبّر عن حزني بقماش أسود
وأضيف
باعتبارك مغلقة تماماً
فلا علم لك بالثلج الذي ينتقم من قلبي
وبالرحى التي تطحن عظامي ملحاً لمقبلات
«مقصف ماري»
أما أن أن تفتحي بابك؟
لقد مضى زمن طويل على وقوفي هنا
تحت الثلج والمطاحن
تحت خيمة الخبز للجياح
والمطاحن للحنطة
لقد جاء الخريف
إنها الريح سيدتي
تحملني كالغبار وأشياء الفصول
لا حاجة بنا إلى النسيان، كي نتذكر أننا ندوي
فقد مضى الخريف علينا
ألا يكفي خريف كامل لموتنا؟
ليكن إذاً، ويتوجب ذلك
كما الحالة بالنسبة لقبر فارغ -
أن ننتظر حفاري القبور، باشمئزاز كبير
أو ننتظر جثة رائجة في سوق عفرين
ليكن إذاً، ويتوجب ذلك
- كما الحالة بالنسبة لأي وجه مكسور -

أن أبقى مطأطئاً مع قطع القبلات في فمي
ومع ذلك
أنا هنا، أمام بابك الموصد، أعض لساني
وأقضم الحروف الواقفة على قدميها
والحروب الواقفة على لثتي

حلب 1988

سباق الخيل والليل

لا أريد أن أبكيك أيتها البلاد
لأنك لست ميّنة
وأهلك ليسوا موتى
لكن،
ثمة غصة في حلقي
غصة لجوجة تشبه مرارة البكاء
أريد أن أنادي على كل شيء فيك
ولأن الأمر مستحيل - إذ فيك ما هب ودب -
لذلك، أوجز المسألة، وأبدأ بما هو متعارف عليه
أنادي طيور الماء
لأن سواقيك على وشك الجفاف
وأقول: لا تحزني إنهم الناس شربوها دون رحمة
وسوف لن يتركوا لك شيئاً
أنادي الحجارة المخبأة وأقول:
هكذا إذاً، سرقوك قطعة قطعة
وها هي أسوار شاهقة تفصل الذين
يقتلون والذين لا يقتلون

أنادي الأقفاص بكل أنواعها
الصدريّة، الحديديّة، الذهبيّة
وأقفاص الاتهام
لقد اعتادك الناس إلى أن كرهوا الحرية
وأيقن السادة ذلك واستراحوا

أتحدث إلى زنوج الغابات الضارية
وبقايا الهنود الحمر
أتحدث إلى من نجا من مذابح الأرمن
أتحدث إلى الأكراد «حساد الأقوام»
الذين يرقصون أو يموتون
أتحدث إلى الأعراب، الذين هم «أشد كفراً ونفاقاً»

أتحدث إلى الجميع وأقول: نحن متعبون هنا
أنادي النساء وأقول:
يا أيتها النساء الطيبات،
الجميلات دائماً، كما كانت البلاد يوماً ما
أناديكن فرادى، فرادى وأقول:
يا أيتها العذراء الأبدية،
تعالى نذهب لزيارة الأصدقاء في السجون
وزيارة الذين خرجوا منها هنا وهناك
إنهم أصدقاؤنا يا سيدتي
أولئك الذين يحبون الكلمات والخبز والممارسة الجنسية
إنها حقوق الإنسان التي وكأنما شر لا بد منه
في طريق الخروج من مدن الخوف
هبيني بعضاً من تقواك وفجورك
أيتها الضالعة في صياغة حق الكلام عند سلطان جائر
يا ابنة أمر جيوش البلية
نبيلة أنت كما أرادك الشعراء
عاشقة كما يحق لأي امرأة
دعيني أحتسي فنجان قهوة معك
وأمضي إلى حيثما يهطل مطر على رؤوس الأشهاد
كمعجزة تذهب الصداق والفقر والمخبرين.

لايدن 2005

«حليب بقرة ليس إلا»

لا أعرف لماذا أصبحت بقرة حلوبيا
وأهلي لا يمتون الى الهندوس بصلة
وكذلك أصدقائي
كل يحمل إناءه ويأتي إليك
وحين يأتي دوري، لا يتبقى إلا الروث
لأن ضراعتك تجف كلما مددت يدي إليها
ماذا أفعل، ليس لي نصيب في حليبك
كما يبدو؟

القاصي يأتيك
وكذلك الداني
وأنا، أشتهي - مجرد شهوة - حليبك اللذيذ

تندلع حروب
وتتطفئ أخرى
وكل يملأ إناءه
وأنا أبحث لك عن العشب والبرسيم
في حقول العالم
وكلما فكرت بحليبك رأيت الطريق إلى ضرعك
مليئاً بالروث والمزادات
يخترع القادمون منك كلاماً ميسراً عن آلام
أقرب ما تكون لآلام المسيح
ويخترع القادمون إليك كلاماً
عن حب التراب والطفولة

أنت أجمل وأغرب بقرة عرفتها
فحليبك يملئ المزيد على شاربه
لا أحد يرتوي
كلهم عطشى ويزدادون ذلك
في الموقف ألم وعبرة

وتجليات القوم دون مواربة
ومن علاماتك الفارقة
أنتك تلدين عجولاً تخور عند مراضها مقتنعة
أنها ثيران لا تضاهى
وتحبين معاشرة ثيران
لا تشبه ثيران إسبانيا بشيء
حين يجف ضرعك
ولا يعود هناك من حليب
وتعودين إلى عصور التعب
ستبقين معي
وسأحمل معنك في البحث عن حقول مكتظة
بذكريات الجنود المجهولين في حروبك المصنعية
وسأقول لك:
أحبك بحليب وبلا حليب
سأزيح روئك عن طريقي الى الحنين اللجوج
في رسم تفاصيل جسمك على شكل خارطة
يتربص بها أعداء القصائد المغمورة

لايدن 2-6-2006

رسائل الى يوسف الخال

«الأرض كانت قاحلة والسماء كانت بعيدة»

مثل شعبي كردي

قبل غياب الهلاك

«ولكن ألا يمد إنسان يده من
تحت الأنقاض؟ أو لا يستغيث في بليته؟»
العهد القديم - كتاب أيوب

إنك أقرب ما تكون إلى الدخول في متاهات قانون الطبيعة
كمن يريد الشر تماماً، والخروج عنها كمن يفعل الخير أبداً
أنا الشاهد يا سيدي في محاكم النحل المباد بالمبيدات
والممالك وفي القاعة السابعة للجحيم البارد
سأقول هنا الحرية لن تنتهي الآن
الحرية لم تبدأ طقوسها الباخوسية بعد
لست قادماً من أمجاد الميديين
أولئك الذين ابتكروا النار الأكثر توهجاً على القمم الجبارة
وإن كنت لا أخفي زهوي البطن بما أقاموه هنا أو هناك
كما أنني لا أتوقع أن أكون أشد نزيهاً في هذه الصفحات
من الهنود الحمر وأصواتهم الأشد قرباً إلى حركة الأتهار العذبة
وهدير الشلالات العنيفة والواثقة
التي كأنما هي في عجلة من أمرها
والتي كأنما يتفصد لها قلب الطبيعة بأنين كبير
على شكل استعادة للصدى المستغيث
مثملاً لا أستطيع أن أكون أكثر صلابة من عصيانات الأكراد
الذين شيّدوا جبالهم بدقة بالغة
تفوق عبقرية كل المعماريين الكبار الذين جاؤوا فيما بعد
بمن فيهم مايكل أنجلو الذي لا بد وأنك رأيت يوماً ممدداً
كتابوت آثم أو خطيئة مقدسة تحت سقف «السيكستين»
ربما لأنهم - أقصد الذين ابتكروا الجبال والغزلان البرية والخناجر -
كتبوا مجدهم الخاص بأبجدية مبتكرة تماماً
هي خلاصة التجريبية الفطرية للحياة
وإن كانت بلغة أكثر حدة أو شفافية تطمح إلى عذوبة أغانيهم الشعبية
التي لم تندرج بعد في سياق المآثر الجمّة للأوبريتات الحزينة
كما الحال بالنسبة إلى الفروسية الطموحة لتراجيديا الأرمن

التي تملي عليّ واجب إطلاق إحدى وعشرين تحية
لذكرى الجموع الهائجة في قلب صديقنا الشاعر يغيجه تشارنيتس
الذي ذهب دون أن يودعنا ودون أن يختتم نشيده الدامي
كما أنني لا أريد أن أنفق مع هيروdotس فيما أقامه من تعارض
بين العالم الهمجي الذي قصد به «المصريين. الميديين. الفرس»
والعالم الحضاري «الإغريق»

وأقول إنني لا أتفق رغم اتفاقي مع سان جون بيرس في ندائه
«لا لأي من الشواطئ يهدى، لا لأي من الصفحات يباح الطعام النقي
لهذا النشيد

آخرون يمسكون في المعابد ببوق المذابح الملون
مجدي على الرمال! مجدي على الرمال
وعلى جميع الشواطئ الرملية في هذا العالم
قصيدة أكثر شراسة تتغذى من كياني....»

أنا الشاهد يا سيدي
لا أقصد الشهادة لأني لن أكون رخامة تحمل تاريخ شرك المكسور
وفضيلتك المنحنية

كما أنني لست شهيداً لذلك لا تستطيع أن تردد في طلبة أذني
بأنني «حي يرزق»

ربما تقول هذه إيديولوجيا، وسيكون في الأمر فضيحة وعار
أنا القرد العاري الذي جاءك ذات صباح من المدن الأولى
وجعلك تتماذى في المياه المالحة دون أن تعلم
بأن مدن الملح جاءتني بكامل رملها

هل تستطيع أن تتصور المدن الأخيرة يا سيدي؟
إنني أتصور عبد الرحمن منيف يحفر نفقاً يشبه قبور الفراعنة
يخبئ القمح والعسل البري

أنتشم رائحة الأزهار المرة كيف تفوح؟
إنه القمح سوف يبعث بكامل سنابله وانحناءاته
إنها المدن التي لن تنتهي

لا علاقة لهذا بحكاية اليأس أبداً
أخيراً وليس آخراً

لقد أدمنت الشك يا سيدي، وأشك أنك تسر لأخباري
تجاهل الأمر إذاً

وكن كمن يجهل تماماً أبجدية اللغات غير المنقرضة

ولأن الذين يعلمون ولا يعلمون لا يستوون في الكارثة
لذلك ستكون قد برأت ذمتك من تعاسة الفقهاء
إنك لم تكن سعيداً يا سيدي، لذلك لن تسر أبداً
إذا سمعت بأنني كلما قررت شيئاً أجد نفسي فاعلاً عكسه
كالذين يتبعهم الغاؤون
لا أستطيع أن أجزم بأنني إذا كنت أريد الشر فسأفعل الخير حتماً
.. لست أدري...؟؟.

سيأتي الصليبيون من الشرق
لا أقصد تماماً شرق الجغرافيا
فيمكنهم المجيء من شرق الهلاك والسياسة
ومن شرق الانطفاءات الكاسحة
التي حدثت أثناء غيابك الوجيز عن مسرح العبث
هنا أخاف من الأذكى يا سيدي، أو قل أنني لا أحبهم
مثلما هم لم يكونوا أعداءك كثيراً
ولا بد من التنويه إلى أنني هنا أردتك أن تكون
مستبداً ومنتوراً في الآن ذاته
كي أتجراً على الوقوف إلى جانب المرحوم «أرنست هوفمان»*
في ازدواجيته المرة حين يتساءل،
«قل لي، من هذا الشبح الميت الذي يحملق في عيني لساعات طويلة
كل مساء، ثم يختفي دون ضوضاء؟»
ثم يجيب بهدوء جريح، ولعل الإجابة هي «الآخر»
- لا أقول الجحيم - أقصد الآخر تماماً
بكل ما في الكلمة من معنى أو خراب
«يتكرر في حياتي شيء على نفس المنوال
إذ يحدث دائماً ما لا أتوقعه شراً كان أم خيراً»
وأراني مرغماً باستمرار على إتيان ما ينافي طبيعتي الدفينة»
ولا بد من أن أعترف بنقيصتي هنا وأقول
إنها خطيئة كبرى تتماثل مع كل الجرائم المشروعة في نواميس المغفلين
فأنا لم أستحضر يوماً الصور المذهلة للأشباح الجواله في حقول الصمت
بما ينطوي ذلك على كل أهوال الموقف
مثلما لم أستطع أن أستحضر يوماً أرواح الشياطين
التي أشعلت الحرائق الكبرى، وأقامت المذابح المفزعة
والحروب العنيفة، ضدك أو ضدي...

أعتقد أنك كنت ستتفق معي على أن النسيان
مزحة ثقيلة من مزحات الذاكرة
وبالأخص إذا كانت هذه الأخيرة غير آثمة
ولكن من يجرؤ على استعمال الذاكرة بشكل مستمر
سوى «أوديسيوس» الذي توقف عن الإبحار
أي عن الذاكرة حالما وجد «بنلوب» متهاكة عند نولها القديري
كأنما ترثي لانتظارها الذي طال كثيراً دون أن يفلح في إطفاء
جذوة التوق اللاهف وجاذبية السراب حين لا يكون مرئياً
سيدي الكريم...
لم أشأ أن أحاكي نكاء ضفدعة رابضة في قعر بئر مهجور
ولم تتمكن من رؤية الزرقة الشاسعة إلا بمقدار ما ظهرت لها
كدائرة صغيرة محيطها فوهة البئر المذكورة
فضربت بذلك المثال على وجه من وجوه الدنيا والناس
التي غامت كثيراً بسبب أو دون سبب...
وليس في هذا إعلاء من شأنني أو شأنك
أرجوك أن تفهمني

* ارنست هوفمان

الرسالة الأولى: قضايا شخصية

هنا تغيب العدسات، وتحضر العيون الفارغة
سأعيد قراءة المساء، وأختبر قدرتي على التمييز بين الأشياء
بين الأرض والسماء... بين الحرب والسلام
بين نارين وحشيتين... نارين ساطعتين
وأكتشف أسباب موتي يا سيدي
يجب أن تحكم علينا بالإعدام
كي أرى بأم عيني مكانتي بين الموتى
وبأخت عيني مكانتي بين القبور الحية
يجب أن تكسر جمجمتي
ليسيل ما كتبته خلال عشرين عاماً في لحظة باردة
يا سيدي حكايتي مرة كحقيقة منبوذة
رسالتي ممزقة كنبي منبوذ
أستغفر رب السموات والأرض - فهو لم يتوجني نبياً بعد -
لقد توجنتني رسالتي الممزقة وقطع لحمي الصغيرة
حكايتي طويلة كالدودة الشريطية
فكلما اقتربت من الأشياء، مدت لي لسانها شامته من حماقتي الذاهلة
وكلما ابتعدت عن نفسي، سحبت علي سكينها
وألقت برأسي في قمامة الكلمات
حكايتي يا سيدي منبوذة، كما قلت لك
صلعاء كمؤخرة الغوريلا
فأنا لا أستطيع أن أبتعد، ولا أن أقترّب كما ذكرت
هنا غرفة ضيقة. سماء ضيقة
وبشكل أكثر وضوحاً
أنا من غرفة ضيقة مثل حذاء صغير على قدمي
أو مثل عالم كبير لا يعير موتي أدنى اهتمام وكذلك أعلى اهتمام
غرفة ضيقة أردد فيها ما تعلمته من الشارع
من سوق النحاسين ومن سوق النحاسين
إن يوسف الخال كان رجعيّاً

وقلت هو كذلك حيث أرجعني إلى بؤسي
لقد تجاهلني جداً عندما لم يترك لي حقلاً صغيراً
- على الأقل- أزرعه بؤساً

ياسيدي

أو بشكل أوضح يا سيد الأشياء كلها
سيد أفلام السينما ومخازن الحمص
سيد النباتات والحشرات، الأحياء والأموات
غرفة ضيقة وأنا، غرفة ليست لي
- حيث لا يحق لي أن تضمني أربعة جدران تستر فضيحتي -

سيدي. حكايتي ليست هنا

حكايتي تبدأ من هناك، فهي عريضة كجبهة الثور
تبدأ من حيث لا تبدأ الأشياء، ومن حيث لا شيء ينتهي..
على أي حال، سأعيد قراءة هذا المساء

فهذا المساء يجب أن أختنق

أو على الأقل يجب أن أذهب إلى القبر
ليصبح غيابي فيلماً هندياً يبتز دموع أصدقائي الحجرية
ولأنه ليس بين يدي قفص - أي قفص كان -

لأمارس ساديتي على قرد تورط معنا في مزحة ثقيلة
فيجب أن أذهب إلى المساء

لأملأ مناخيري «شحواراً» ورعباً أخرس

يجب أن أذهب إلى المغسلة لأنظف يدي القذرتين
مثلما نظف وطني دماغي من الأشياء الضارة - على سبيل المثال -

ومثلما أهل بلدي يصادرون مني حبيبتني

يجب أن أصادر عليهم موتهم

يجب ألا يموتوا أبداً

يجب أن تمنعهم من الموت يا سيدي

وبالمناسبة أيضاً

يجب أن أذهب إلى المرحاض لأطرح آخر ما تبقى مني نظيفاً،

فأنا - وربما لأنني مازوشي -

لا أحب الأشياء القذرة في الأشياء النظيفة

والعكس بالعكس

يا سيدي، هنا تذكرت

تذكر أنت أيضاً، كن معي

تذكر أنني لا أنسى، وهنا أجد نفسي أمام مشكلة عويصة
خاصة إذا أخذنا باليقين القاطع لذمتنا أو الكلام القاطع لأمتنا
أن الإنسان من النسيان
فهنا تكون إنسانيتي موضع شك كبير بشكل تلقائي
ولكني مع ذلك لا أنسى أن القاطرات تسير بالنفط
ويقال أن الثورات قاطرة التاريخ
وبين القاطرات والنفط يسير النهار على قدميه إلى الأفول
وتسير الأشياء بالدرهم
والدرهم مراهم كما تعلم
لذلك سيكون موتي خشناً
فجثتي لا تحتوي ولو فلساً واحداً - على الأقل -
سيدي، أضف إلى معلوماتك
لي صديقة برتقالية
ولكونها برتقالية - وربما لكونها صديقتي -
فإن الذين يحبون العصير يشربونها بدلاً عن القهوة اليمنية
وأنا أبلع ريقى أمامهم
لا أحرك ساكناً، ولا متحركاً، ولا طائراً
لا أحرك شيئاً على الإطلاق
أنا صفر مطلق
حكايتي طويلة ويدي قصيرتان جداً
يا سيدي أنا صفر مطلق
تقول العرافة - قلبي - بأني سأصبح طلقة
تصور طلقة يا سيدي
يجب أن تحكم علينا بالإعدام
يجب أن تمنعني من الحب يا سيدي
فأنا لا أملك إلا تعاستي دون مراهم
سيكون موتي خشناً
وكذلك حبي
دعه خشناً، حبي يا سيدي، حبي

الرسالة الثانية:

أشياء أخرى

إنه القدر... هذا اللغز الشيق
هذا الشيطان اللولبي
الوهم. الحقيقة. جدار جسدي
وأنا دونكيشوت هذا القرن
دونكيشوت هذه الساعة
جامح أكثر من حصاني
دائخ أكثر من طاحونة هواء
هنا الدنيا تتسع بعض الشيء
وكذلك القدر
تشدني الأشياء الميتافيزيقية
الحقيقة مقتلي على يد هذا الظل الماكر ورائي. الوهم
الوهم إذاً يا سيدي
خذني بيدي أو برجلي
خذني من شرابييني المكشوفة إلى فم صديقتي المكسور كسفرجلة
إلى فوهة وطني البائت كبركان ميت منذ أيام إقليدس
حيث الملتوي أقصر الطرق بين نقطتين
أو إلى زوبعة واسعة في فنان ضيق
لتنكسر حراشفي المطعوجة، وأستقيم في خاصرة الأشياء
من أفواهكم أدينكم، هكذا سأقول، للأمم الميتة
والشعوب التي لا طعم لها ولا لون
للجثث ذات الرائحة القوية، والفصول المصابة بالزكام
لأنوفنا البالغة في الطول
سأقول لقد جفت صحف الصباح على جريمتنا القانونية
وسراويلنا الشرعية جداً
ورفعت أقلام الفراشات، دون أن تكتب على صدر زهرة برية
صباح الخير أو صباح الشر مثلاً
سأنزف الكلمات، وأتقاطع مع لغتي
أعيد تكوين الكوايبس على شكل قانون

وتشكيل الجغرافيا على شكل تاريخ
وتأسيس التاريخ على هيئة «بلدوزر»
هكذا الأشياء تتم دون أن يستشيرني أحد أو يستشيرك ياسيدي
لأنهم غائبون - والغائب عذره في جيبه - يحمله كاسم بلا مسمى
وكمسمى على مدمى
ستسير الأمور كما ينبغي - وفي الحقيقة كما لا ينبغي -
تعال نعيش إذاً، وبصفتك رجعيًا ومغرورًا
- و هذا ما يعجبني منك - ارجع إلى الأمام يا سيدي
نحن هوية الزمن المفقود، نحن العنوان الواضح لكل ما هو فاقع هنا
ارجع قليلاً ليظهروا عدميتي الكريهة
ولأصبح فقاعة صابون هذه الدنيا
ليضحك العقلاء إذاً، وليضحك القتلة إذاً
ليضحكوا... ليضحكوا
ليصبحوا بعد قرنين أو قرن واحد حيوانات ضاحكة
نعم حيوانات ضاحكة
ولنصبح كما نشاء، ولأننا لا نشاء أبداً
فالكثير من الأشياء سوف تحدث
فمثلما كنت فيما مضى أقود جيوشاً ضخمة
حتى التقيت بهزيمتي، وذاب جنودي كالشمع
ستحدث أشياء أخرى أيضاً
لا تقطع الأمل يا سيدي، ولا تقطع رأسي أيضاً
كي لا تحرم القتلة لذة تعقبي
والسفلة لغة تعقبي

الرسالة الثالثة: نصيبك يصيبك أو لا يصيبك

أيتها الأرزة، أيتها اللغة البيضاء
أيتها اللحية البيضاء، أيها اللبناني العجوز
تجاوزاً يمكننا الانتظار
سأكون «غودو» بالنسبة لك
وبما أنني هامشي جداً
كن أنت «غودوي» الذي لم أنتظره ولو لحظة واحدة
لقد كنت أت بشكل مستمر، وبشكل مستمر كنت تذهب
لست أدري تماماً
من أين أتيت بطبيعتك النهرية وتكوينك النهري؟
هذا شأنك، ومصيري شأن هذا العالم
والعالم ليس صديقة أقرأ لها قصيدة حب
العالم شأن آخر
العالم ليس شأنك أيضاً - لأنك شأن الأتهار المعكوسة -
ترجع إلى الأمام وتركض إلى الوراء
تجرب صداقة الطريق لك
أنت تجرب إذاً - والتجربة أكبر برهان -
التجربة بنت اللغة، واللغة بنت الناس وبنت الغابة
- غابتنا المكتظة بالأشباح النورانية -
وبحكم سذاجتي الجغرافية
تعلمت منذ أن كنت صغيراً
- والعلم في الصغر كالنقش في الحجر -
ومنذ أن كنت كبيراً تعلمت
ومنذ أن لم أكن، لم أكن ولن أكون
فمنذ أكثر من ألفي عام أنا مهزوم هنا
ومنذ مائة سنة تقريباً قررت أن أكون القرن الخامس بعد الموت
والساعة الخامسة والعشرين
خاصة، منذ مائة سنة لم أمت بما فية الكفاية
ولم أقبل صديقتي بما فيه الكفاية

سأتكى على ذاكرتي المكسورة
وسنلغي اللغة هنا، وبالأحرى لقد ألغينا الأشياء الأكثر أهمية
سنلغي الماضي كي يصبح أمامنا، وكذلك يجب أن ننسى المستقبل
لنثبت قدراتنا الفذة على النسيان وبشكل أدق على التناسي
أرجوك أن تتحملني يا سيدي - سأبدو غليظاً على شكل بلبل -
وأرجو أن لا تلغي اللغة بيننا
فنحن في الغابة، واللغة بنت الغابة
تعال نتحدث دون مزاح، ونحارب كملوك أشداء
يجب عليك أن تحاربني، وأن أحاربك
يجب أن لا نكون جبناءً مثل «هاملت»
يجب أن نقتل
وأن تكتب أسماؤنا المكشوفة في أرشيف المنظمات الدولية وغير الدولية
يجب أن نقتل لأتفه الأسباب ولأعظم الأسباب
أنت سور لا ألف له ولا ياء
أنت سور وأخرس
لقد سرقوا اللغة، إنهم اللصوص يا سيدي
يجب أن تتمالك قلبك كي تسقط في المأزق مباشرة
تعال نصبح عمياناً
فالعمى أفضل أشكال التبصر
أريد أن نصاب بعمى الفراشات وحمى النحل
وهذا ما لا يريده أحد لنا
نحن جيف ساخنة، لا غبار علينا، ولا غبار على وجوهنا الذائبة
هكذا يقررون وهكذا لا نقرر
تعال نحتال على اللغة، مثلما يحتالون علينا كلما شأوا
- و بالطبع هم دائماً يشاؤون -
بمشيئتهم تجري الرياح وتجري السفن
تجري الأنهار والبحار
يجري الدم في العروق وكذلك على الأرض
إنها المشيئة يا سيدي
يلزمننا شيء من هدوء الماء، كي يتحسب المارة من عمقنا
وكي يتمروا في سطحننا
ولكن لست أدري لماذا كلما شاهدني أحد ما نظر إلى ساعة يده
ليعرف الوقت بالضبط؟

أمر كثيرة أجهلها يا سيدي رغم أنني قرأت باسم ربك الذي خلق
خلق الانسان من علق
التتبع إشكال ميؤوس منه، أشكال ميؤوسة منها، تابع معي إذاً
فرغم أنه لا يحق لي أن أكون ولو صعلوكاً ذليلاً أو لصاً عارياً
حيث الكينونة معدومة هنا
وأنا حكمت علي جميع المحاكم بالإعدام بالجملة
فإن أمور كثيرة يمكن لها أن تكون... و يمكن لي أيضاً أن أكون...
الإمكان قائم دائماً... المكان قائم دائماً
النفط يا سيدي والثروة الحيوانية
الثروة الشعرية، الشعر أيضاً نطف...
كلا - أعتذر - الشعر ليس نطفاً
الشعر حريق، وبلغة اخرى احتراق للكلام
ألف. لام. ميم. ألم يكن بالإمكان أن نكون رعية جديرة بالموت عند بوكاسا مثلاً؟
أيها الملك إنك لن تسقط لأنك لست ملكاً على الإطلاق

الرسالة الرابعة: المهم هو الأزرق وبشكل أدق الأحمر والأسود

هنا الأشياء تبتدي
القافلة تمشي، والكلاب نائمة لذلك فهي لا تنبح
الناس كلهم يمشون.. وأيضاً الأرض. القمر. الرياح. المياه. الغبار...
إلا أننا واقفان يا سيدي
والوقوف هنا ليس بقصد الموت شجاعة
رغم أنه يقال: الأشجار تموت واقفة
لا يهم الموت وقوفاً أو جلوساً بالنسبة لنا حيث الحياة زحف مذل يا سيدي
وباعتبارنا لا نتعظ أبداً، ولا نستفيد من التجارب أبداً
لذلك سأمد قدمي أطول من بساطي الممزق
سألقي قدمي في العراء، وكذلك في دواليب الحظ
إنك لن تحتاج للسفر إلى بنغلادش لتتعرف على الجوع
كذلك لن تحتاج إلى دونكيشوت ولا لطواحين الهواء
يجب أن نتذكر الأغاني - يا مارر عالطواحين الماية مقطوعة
خايف لتدور الطواحين والحلوية توعا -
يجب تمرين النسيان على الذاكرة
يجب أن لا يتبعنا ظلنا
هل تتذكر الظل يا سيدي - ربما كان الآخرون -
سأعطي جرحي بعداً آخر، وأمنح الفراشات معنى آخر
فبعد أن تحولت صديقتي إلى فراشة، أخذت أزهار الأغاني ترقص
الأزهار ترقص والفراشات إليّ تطير... إلي... إلي
البحار... ما شأننا بالبحار
المهم هو الأزرق، الأزرق العميق، الأزرق الحالم
ولا تنسى الأشياء الحاملة..
وكذلك التردد الحالم مثل عيني أمينة التي قلت لها ذات مرة
بقلب حاف وبقدمين حافيتين أحبك..
هنا رومانتيكية مدي
أنا ابن الأزقة والشوارع المراقبة بالرادار
وقد قلت لقاطع التذاكر
سيكون نعشي شرفاً منبوذاً للناس

كما قلت لقاطع الرؤوس
سأعطيك المال - أي الدراهم - وهو ما قلته لقاطع الطريق أيضاً..
ولكن يا سيدي - أرجو أن يكون الكلام بيننا -
ليس لدي سوى قلبي الحافي وقدمي الحافيتين
لقد كفر ديكارت يا سيدي لقد كفر
ونحن المؤمنون جداً - كعادتنا - بالأشياء الممكنة
سنقول دائماً ممكن جداً ولو كان غير ممكن
خاصة وأننا متورطون في اللعبة مع قاطعي الأنفاس
وهذا في حد ذاته أخطر من اللعب بالنار
ولأنك لست ملكاً على الإطلاق فإن عرشك لن يهتز على الإطلاق
ولأنك بحر وأرزة، ستبقى أزرق إذاً أو رمادي غير صامت
وستبقى لحيتك بيضاء، كل ذلك للاحتتمالات.
دعني أتفلسف يا سيدي... أهذي... أشكي... أشكو...
مثلاً من الأكراد الذين يتحدثون عن حلبجة في الأعراس
أو من السياسيين الذين أخذوا يشربون القهوة بالحليب
تماماً مثل ريتا عشيقه الشاعر الفلسطيني محمود درويش
وكذلك من «الشعراء» الذين يتحدثون عن أزمة الشعر
أو عن أبي العلاء وفانوسه السحري
يجب أن أعرفك بنفسي يا سيدي
فأنا سليل النفط والدول العظمى
أنا سليل الخيانات العظمى
ولأن الأمور جدلية جداً فإنني - أسوة بالآخرين -
أجعل من ذلي إباءً لا يطاله الشك
ومن ظلي إناءً لا يطاله حتى جسدي الضامر

الرسالة الخامسة: وجدانيات لا تتعلق بالوجدان

علينا أن نرفع الستار.. ونرفع رؤوسنا أيضاً
ولأن أعناقنا فيها شيء من الانحناء
فعلينا أن نكتشف ما يتم وراء الكواليس
حيث من يفعل مثقال ذرة شراً يره
إنها الجريمة، جريمتنا نحن التي لم نرتكبها
لأننا عناصر الجريمة فقط - محتوياتها - وليس ارتكابها
لنأخذ العبر من الزمن، والدروس من اليمن
وكل الاحتمالات من الوطن، من الوطن يا سيدي من الوطن
هنا التكرار واجب، ولا شكر على الواجب كما هو معروف
يجب أن نتسكع ونكون أول الجياع جوعاً
وأكثر المهملين - بفتح الميم وليس كسرهما - اهمالاً
وأشد المنسيين نسياناً
ولأن رغباتنا في الموت لا تتحقق، كذلك فهي في الحياة لا تتحقق
لست يائساً على الإطلاق
ولست أرثيك على الإطلاق... فالرثاء أمر ذليل
والياس مهنة شائعة، ولأننا نتوجس من الشائعات
لذلك سنضع كل ما هو شائع جانباً
نحن بصدد أشياء أخرى
لست أمدحك أيضاً... فالمدح عادة السفلة
ولست أقدحك... لأن القدح مهنة القائمين على رأس مهام ما
ولأننا مشردون حتى النهاية
- باعتبارنا من أولئك الذين ينتمون إلى الدنيا والناس -
لذلك أتحدث عن أصولنا في الينابيع العميقة
فوق هذه الأرض وتحتها من جنات عدن وجنات شأن
وعن فروعنا المختلفة في مدن هذا المحيط
المحيط إذاً. المحيط بنا والمحيط فينا
وهنا سأسميك محيطاً لأنك تحيط بأشياء لن يعرفها السفلة
إنك لن تحتاج لزيارة المتاحف كي تتعرف إلى مستحاثاتنا هناك

فأنت تعرف أصولنا عموماً وفروعنا خصوصاً
لذلك لن تحتاج لزيارة المقابر كي تتعرف على الموتى
نحن وراءك تماماً.. لا تبالي يا سيدي لسنا أمامك
نحن وراءك فقط ، لن تحتاج للالتفات نحونا كي تعرف الأحياء
لأنه ما زلنا نفارق الحياة دون أن نموت
أريد أن أحدد هويتك أكثر كي أرى حجمي بوضوح
خاصة وأنت لست ملكاً، لذلك فالشعر ليس مملكة
و لست راقصة، لذلك الشعر ليس رقصاً
إنك مجرد شاعر يا سيدي
أنت مخرب يا سيدي، إذاً الشعر تخريب
أنت نبي يا سيدي لذلك الشعر منبؤ في هذه الأرض الغنية بالبترو
- أمرك لربك إذاً - تهاجر إلى المدن المنورة، وإلى المدن المدورة
المدن المقعرة كبطوننا، والمحدبة كظهورنا
المدن المستطيلة، المربعة، المثلثة، المثني، المفردة
المدينة مفردة ونحن جمع يا سيدي.
الشعر ثورة بيضاء، لن أقول انقلاب
لأنك ربما تخاف من الانقلابات كالمملك
لذلك أنت جندي مكشوف لا نصب لك ولا ذكرى
تنتصب في خاصرة الأزمنة وتغزو العالم
العالم المغلق الفم، الحاد الزاوية و المنفرج الساقين، كجرحنا
كأحلامنا. كمتاهاتنا. كأشياننا الأخرى. كأوطاننا
أرجو المعذرة من استعمال كاف التشبيه بغزارة
- فهذا لا يجوز كما يقول الأصوليون والمتأصلون -
رغم أن أعرابياً تجراً على استعمالها مرتين في بيت واحد
أمام أنظار خليفة عباسي
" أنت كالكلب في وكالتيس في....."
فماذا لو أن هذا الاعرابي جاءنا الآن وأراد أن يقول
ما قاله لأحدهم - لا أقول لأحدنا -؟
حسناً إذاً
يجب الأخذ في الاعتبار هؤلاء الذين أمعأوهم دقيقة وبتونهم غليظة
يا سيدي
الذين يطبخون الشعر في طنجرة نحاس
كي يطمئن الفراهيدي!! إلى شاعريتهم الفذة بالطبع

لنمشي إذاً، لأنك تفتح أبواب الحروب
ولأنك لا تحب أن تقتل ولا أن تقتل. فقد ذهبت وكأنهم قتلوك

الرسالة السادسة: المكان والزمان.. نحن والعالم

باعتبارك لست المكان، ولست الزمان
وباعتباري لست عضواً في الأمم المتحدة
كي ندول قضية من يموت دون أن يتمتع
بحق الحصول على قبر مناسب
ولست عضواً في منظمة «الأوبك»
كي أستخدم الغاز الطبيعي في مجالات غير سلمية
وكذلك لست عضواً في اتحاد الكتاب العرب
كي أدعوك إلى حفل تكريم صاحب خط متقن
يكتب للمنتصرين بحروف من عسل
ويتعملق على الملك السكير امرئ القيس
لذلك أرجو المعذرة يا سيدي
حين سيكون القمر ساطعاً، نصفين أو قطعة واحدة
للأشياء حالاتها.. تحولات العمر فينا
كذا النباتات حلوة.. ذكريات العشاق... مرارة الحب
في قاع كل قلب يا سيدي.. حلاوة اللحظات الهاربة تحت لساننا
ساعة للتنفس في السجن.. ساعة للشمس وساعة للمحي
التاريخ ممحاة.. نعم التاريخ ممحاة منشارية
الجراد. الجراد يا سيدي
غابات النخيل وحقول النفط
جيكور اليتيمة وابن السياب
الفراشات السائبة.. الكلمات... الطرق الملقومة..
الشعر الموقوت.. القنابل الموقوتة.. الأصدقاء الموقوتون..
الزمن الموقوت.. الأعداء الموقوتون
ابن آدم هنا.. المخاط الشعري.. المشهد الكوني..
مخاض الجبل وولادة الفأر
ولربما مخاض الفأر وولادة المقاعد.. نعم المقاعد تماماً
الصحف.. الصحف... الصحف يساراً... الصحف يساراً إذاً
عليك أن تكتب بيدك اليسرى كي نتأكد من أنك يساري

وإلا فإنك يميني حتى يدك اليمنى
تعال نتحد لنكون أمة واحدة، أو تعال لا نتحد
لنختلف. لنختلف، ونختلف
- أعيدك من الاختلاق فأنت خالق يا سيدي سامحني -
لنختلف إذاً. لأنك لم تخلق الأشياء من علق
إلى المراكب لنبحر. لنبحر
لا نتركنا أيها الفاتح.. البحر من أمامنا والعدو وراءنا
هنا مراكبنا تحترق، علينا بالمجاديف
لنجازف.. هكذا يقول البحر الذي أمامنا يبتعد أي يمتد
لقد أحرقوا مراكبنا ليطبخوا وليمتهم، وأيضاً شعرهم
لنا المجازفة يا سيدي. لنا المجازفة
لنكن عصاة الشعراء إذاً - ولأن كلمة عصاة لا تليق بنا -
فلنكن مهربين إذاً - نهرب ما نكتبه على جدران عروقتنا العارية -
لسنا مهربين يا سيدي
لنا شرطة المكافحة وكل أنواع الشرطة
حتى شرطة الجوازات، فالشعر لا يجوز
العالم شرطة يا سيدي.. البترول أيضاً شرطة
كذلك الانحياز وعدم الانحياز
الحاسوب العربي. ميتسوبيشي وعربسات
إلى الضفة إذاً. الضفة الأخرى، ضفة الأعشاب السامة
الغيوم كما يجب والمراكب كما يجب
البحر. البحر.... لنا البحر
ليس لنا بحر يا سيدي... لنا اليابسة. البر المحترق
الرماد البري واحتمالات أخرى. شعراء آخرون. قارات أخرى
لربما آسيا.. آسيا إذاً.. القارة سراً. الغربة سراً. الحب سراً
الموت سراً. الثورة سراً. القبلات سراً. الأشياء كلها سراً
سراً وسراً يا سيدي - والكلام سراً بيننا - أحبك سراً وأكرهك سراً
لا غرابة في هذا
خاصة إذا علمت أنه حتى حبيبتي - رغم أنني أرى في هذه الكلمة
خطأ لغوياً وأخلاقياً سافراً - عشقتها سراً
وبدافع من أناانيتي البيضاء التي تشبه لحيتك المكشوفة، أثرت الأشياء الشائعة
ولكن لنتابع سراً غربتنا بحكم النفي ونفي النفي. الجدل يا سيدي الجدل
هيغل يبتكر القانون وكذلك كارل ماركس. ألبير كامو حاقد جداً...

القانون ابتكار ويسمى خطأً اكتشافاً... الابتكار يا سيدي الابتكار
فكما هو معلوم أن الفلاسفة يبتكرون الأسلحة
فكذلك هو معلوم أن البترول يبتكر القتل
وبتعبير آخر ينسخ الأشياء.. الجرارات.. أجهزة الفيديو..
أسطوانات الموسيقى.. الفنادق...الناس. و الحبل على الجرار
ولأن النسخ مسخ في الظاهر - أقصد الباطن - لذلك العالم مسخ يا سيدي
حلمك علي. لقد تطاولت أكثر مما ينبغي، أكثر من الحدود الدولية
والمعاهدات المبرمة بشكل ثنائي وثلاثي وأحادي
و اختصاراً بشكل سري
لقد وصلنا الخطوط الحمراء و بكاراة الدول
يجب أن تكون الدول عذراء كصبايا آسيا يا سيدي
إنها فلسفة الآخرين - أي الأعداء -
يجب التوقف إذا... قف
ولأنك لا تقف أبداً
لذلك تابع سيرك، أو تابع سيلك أيضاً إلى الضفة
الضفة الأخرى... ضفة الأعشاب السامة
لا تشرح شيئاً لي.. فالشعر شرح خاص
الشعر حيث ينتهي الشرح أو حيث يبتدي
أو يلتغي كما نحن نلتغي... ولأننا لا نلتغي لذلك نلتقي
نلتقي في العالم، في المراكب التي لم تحترق
مراكب الأخدود الحاد

الرسالة السابعة: ستكون الدروب وعرة كما مضى

طريقان إلى الشعر ونفترق
طريق إلى سجنين ونفترق
لا نموت واقفين لأننا لسنا أشجاراً على الإطلاق
سوف لن أحدثك عن الجنون، فقد ادعاه الكثيرون وادعاه القليلون
وبلغ حد الابتذال - أقصد التواطؤ -
التلوث. التلوث.. تلوث البيئة وتلوث الشعر
الشعر بيئة والبيئة تاريخ
التاريخ مزاج يا سيدي وليس مزاحا
النقطة التي في تقعر الحاء هنا تعني الكثير
لنطالب بالنوايا... النوايا طيبات
إنما الأعمال بالنيات وإنما النيات بالأعمال
ولأنك تشتعل دون ضجة
فلماذا كل هذا الانطفاء في سقف بيتنا دون ضجة؟

الرسالة الثامنة: الأحجار والقصائد

الصيف ضيعت اللب، وأنت ضيعت نفسك معي
ولأني أعرفك عن كثب، فقد ضيعت الفرصة بأن تكون ملكاً
لقد خسرتك الممالك، وضيعتك المسالك
ومع ذلك اهتديت إلى هنا
إلى النهايات المغلقة للملوك. وإلى البدايات المكسورة للأمم
- أي لنا - باعتبارنا أمماً مكسورة
وصحيح جداً أن نكون مكسورين أو أن ننكسر كقشور الجوز
وعنيفين ك رغبات الذين يرمون أنفسهم من الشرفات إلى الشوارع
ومن الشوارع إلى الثورات النازفة
وصحيح جداً أن لا تكون صحيحاً - ولست صحيحاً أبداً -
إنك لست صحيحاً يا سيدي
من الممكن، وإنك كذلك، أن تكون:
فدائياً، كالشعراء في القصائد
وعاشقاً، كالشعراء في القصائد
ومجرماً، كالشعراء في القصائد
ومن الممكن - وربما لست كذلك -
أن تكون نبيلاً كالملوك في العواصم
الملوك نبلاء يا سيدي
نعم نبلاء، رغم أنفك، ورغم أنفي أيضاً
وإذا لم تصدق فعليك بالجرائد، وإن لم تشأ فعليك بالقصائد
الملوك نبلاء بحذف النون.. لنكن على بينة يا سيدي
يجب أن نعترف بحقوق الإنسان دون مراعاة لمزاج الملوك
أو يجب أن نعترف بحقوق الملوك
ورغم أنك لست ملكاً
إلا أنه يجب أن نعترف بحقوقنا المشروعة
وغير المشروعة كلما راودتك الشجاعة
فالساكت عن الحق شيطان أخرس
ولتعلم أن الملك حق - أو هكذا صار - ولحيتك البيضاء حق

و القبر حق. القبر حجر أيضاً
الأحجار ملك الشعوب
ولأننا لسنا شعوباً - أقصد نحن الاثنين فقط -
لذلك تعال نكف عن استعمال الحجر في قواميس المساء
كي لا تتحجر أيادينا مثل تماثيل الملوك
خاصة وأنت لست بملك
ولزيد من التوبيخ يمكن أن ننسب الحجر إلى العصور الحجرية
والكلمات إلى العصور «اللغوية»، والنار إلى عصور الجحيم
لقد خلق الله الجحيم حين خلقنا الشرارة الأولى في أحسن تقويم
أو في أحسن صوانتين
ويمكن أيضاً أن ننسب إليك أشياء كثيرة
ويمكنك ألا تخرج من القصور
قصورك عن أداء فريضة الحج مثل روجيه غارودي
وقصورك عن توفير الموت بسهولة تامة لشعوب تقاوتل ضدك
سأتركك في قصورك، كي تدرك أسباب سقوط الأندلس
إنه دونكيشوت يا سيدي.. دونكيشوت الرث. المختبئ
الذي يثير شفقتنا الساخرة.. لقد أسقط دونكيشوت الأندلس
لنكن في الضفة إذناً.. لنفكر جيداً بالنهر الذي يفصلنا عن برٍ ميت
لنترك البر الميت.. لقد تأثرنا بإسبانيا
فمثلاً مصارعو الثيران ينازلون ثيرانهم براية حمراء
كذلك عشيقاتنا ينازلننا بروب أحمر وأخر الليل
ولأن أواخر الليل زمن مخصص للأشياء الخطرة
لذلك يمكن لحرب عالمية أن تنشب فجأة في أواخر الليل
ويمكن لانقلابات عالمية أن تنشب
يمكن أن تنشب انقلابات ضدنا.. وانقلابات ضد الملوك
ولأننا نشبه اللصوص إلى حد ما
حيث نستخدم مفاتيحنا على أبواب لم ندخلها
لذلك نحاول التركيز على الأشياء الثمينة
نستخدم مفاتيح الكلمات على أبواب الأشياء
ونرتطم بجدران بيتنا العتيق الذي لم يتطور أكثر من ياقات الملوك
لذلك أرجوك أن نختلف كي نبتعد عن بعضنا
اختلف عني وابتعد عني
العفو يا سيدي أنا قريب من آخرتك التي مضت

هنا أولك. دنياك
هنا نمضي في القصائد إلى نهايات الأشياء
وفي الحلم إلى بدايات الموت
لتكن على علم بأننا نحلم بالموت
- بالطبع لا أقصد نفسي وإن كنت أشملها -
فأنا طاردت وجهي حتى التصقت به ولم أغرق مثل الأمير نرسييس
الذي تمرأى في وجوهنا حتى غرق فينا
نرسييس يا سيدي. نرسييس
نرسييسك، الذي أودى بك في أرزة بيضاء
وقصيدة بيضاء لم تكتبها
و لحية بيضاء تخبى بها وجهك

الرسالة التاسعة: الحكم أولاً.. الحكمة أولاً

لندع التذكير والتأنيث جانباً كي لا تشعر المرأة باضطهادها
ولندع أفواهنا جانباً كي نكف عن الثرثرة - أقصد عن الألم -
ولأنك لست كفيفاً فتألم كما تريد ولا تخف
فالأمم المتحدة أباحت لنا حق الألم في كل قوانين الدول
- بما فيها الدول التي لا قانون فيها -
ولأنني لا أحبك كما يحبون النساء في الأغاني
لذا أحرصك ضدي وأحرصني ضدك
تحرص الأشجار على الأشجار - ذلك في الغابات -
و الأسماك على الأسماك - وذلك في البحار باستثناء البحر الميت -
تعال نحرص القوانين على القوانين
إذا كنت حريصاً على ازدهار اللغات الخالية من الدسم
لقد أخذنا من الفلاسفة حكمتهم الباردة
ومن المشردين أقدامهم المزروعة في الأرضفة
ومن المزارعين عقلهم المكسور
يجب تطوير الزراعة.. لنزرع القطن على ضفاف الدمامل
والشوكيات في العقب الحديدية
والخيزران في أعقابنا
ويمكننا أن نترك رغباتنا الحاقدة
يمكننا الاستغناء عن الهديان إذا أمكننا الاستغناء عن العالم
لقد هاجرنا كعقولنا.. عقولنا ليست كالسنونو.. وأنت لست كالسنونو
برأس فارغ أفكر في اليوتوبيا
حيث من الممكن للأرز أن يتطور دون أن يكف عقلي عن التهجير
وبشكل أبيض أستطيع أن أقول أن عقلك اختنق في رأسك
لذلك لا تعاتب الحرس الذين طاردوه إلى ما وراء الحدود
ولذلك كسرت تابوتك وخرجت إلى الموانئ
وكسرت القصائد كي تخرج إلى العالم
والقصائد ليست توابيت وإن كانت أبوابها من حجر

ولأنك لم تتحجر، لذلك كان عليك أن تتفجر مثل بيروت
أنت بيروت يا سيدي.. بيروت الأخرى.. بيروت الشقيقة
الشقيقة التي تضرب نصف الرأس
والعالم الذي يضرب النصف الآخر من رأسي
ولأنك لا تحب المزايدات كالذين يمارسون السياسة
ولا تحب الأبقار كالذين يشربون الحليب
لذلك كونت فكرة خاطئة عنا
لا تكون فكرة خاطئة عنا يا سيدي
ومن الأفضل أن لا تكون فكرة عنا على الإطلاق
وحتى لا تكون دونكيشوتاً أعور
التفت إلى نصفك المكسور في الطريق إلى المأثرة!!

الرسالة العاشرة: غيرة الأشياء تمحي ظل النوايا

سأتحدث عن مجريات الحلم في مجمعتي
وعن مجريات الديدان في حلمي
سأتحدث عن أسناني المنخورة
وعن مجريات السكاكين في عنقي
وكذلك عن مجريات عنقي أمام عتبات الدنيا
سأتحدث عن الانقطاع.. انقطاع الانتظار في قلبي
سأتحدث عن انقطاع سرتي نتيجة الخوف، فأنا أخاف يا سيدي
سأجمع حروف الجر وحروب الجر
سأجر نفسي إلى بليتي، وأستعمل كل أدوات الجر مع خوفي
سأتحدث في خوفي.. سأتحدث بخوفي.. سأتحدث من خوفي
كالمعتقلين في التحقيق - حيث أنا معتقل داخل نفسي أو نفسك
أو نفس من تشاء. لا فرق -
سأتحدث عن خوفي.. سأتحدث على خوفي.. سأتحدث إلى خوفي
سأتحدث بلغة واضحة ولسان مقطوع
لقد أصبح حلمي ضرساً منخوراً
ولأني لا أريد لحلمي أن ينتخر ولا أن ينتحر
ولا أريدك أن تكون ملكياً أكثر من الملوك أو فلكياً أكثر من الفلكيين
لذلك لن تكون جمهورياً أكثر من جيش إيرلندا السري
ولا يمكنني الخروج من جلدي الآن كي تعرفني
الآن إذاً .. المهم هو الآن
الآن مطلوب مني أن أقدم رقصة شيقة
- أسوة بالسيدة نجوى فؤاد - لِسادة من غبار
ومطلوب أيضاً أن أغني وأسير في جنازتي مع بكاء أُمي
ولكن يا سيدي أظنك تكره هؤلاء
لذلك أرجو - بعد خروجك من القبر والإفراج عنك -
أن لا تندم على زيارتي مثل صديقة قبلت وجهها العاري
ورغم أنه كان ممكن جداً أن نتحدث عن علاقة الحب بزلزال أرمينيا
أو علاقة الجراثيم بالأزهار، وعلاقة شفيتها بفمي الثرثار

إلا أنها وبختني.. فبلعت ريقى كسكين مسمومة كي أموت سراً
كما يموت الساسة المنبوذون
إننا نفشل يا سيدي - وللتذكير فقط -
فقد فشلت أن تقلد زوربا مثل «علي الجندي»
أو أن تنزع عن امرأة سروالها قبل أن يطفح الكيل
وفشلت أن تقول أن الوطن - أي وطن -
من الممكن أن يصير تابوتاً يحمله الناس إلى القبر
بشيء من الاحتفال المقدس
الفشل بندقية صدئة.. لذلك فهو يفشل معنا
لننجح إذاً.. لننجح كلما جاءنا الفشل
وكلما جاءنا الهمم - لا أقصد خوفو - وإنما شيخوختنا يا سيدي
إننا متعبون هنا.. أنا متعب هنا
قرب تعبى أكتشف الأشياء وعيناي مسافرتان الى العدم

الرسالة الحادية عشر: سقوط الظل

ليوم آخر.. وليوم مضى
أختبئ في الصفحات
بشكل أبيض أمحي نفسي
وبشكل أسود أمزق دمي
أختبئ في الصفحات الممزقة من الجرائد
وفي الصفحات الموحلة من الأرض
منبوذاً في ضلوعي المكسرة كصوت قلبي
أرتدي دماري المر
فإنني لا أملك ما يفضح عريي كثياب الإمبراطور الجديدة
حين تنعس السماء فوق رؤوسنا
والشمس تعلن عجزها عن الوقوف عارية
ويهبط المساء علي كطير كبير
أصعد تعرجات نفسي في عالم خال من الحبق
أستيقظ من حالة زعر أو حلم
لقد تعبت كثيراً
أي عشت كثيراً من أشباه الأصدقاء وأشباح البلد
من تكرار العمر بلا سبب
تعبت من السجون والمقاهي والألم
وحتى اللحظة هذي لم أتعب من الكلمات التي أكررها
ومن حبيبتتي التي أكررها
من الحرية التي أتمناها
أكرر وأتمنى
وأنا جبار وكسول كذكر النحل
في رأسي ضجيج غامض
صدري أجوف كالقفص
وحين يستيقظ الفجر دون معنى
ويبدأ الناس طقسهم المريض كالعادة
أناجي العالم الغائص في تعاستي

بصوت ولد منبوذ
أما آن لهذا الصوت المتكسر في حنجرة قلبي
أن يقول شيئاً في حجم مصيبيتي
ولهذا الحلم الذي يستفز آخر أنفاسي - بأن الحرية إنسان -
أما آن له أن يريني عرض أكتافه؟
حلمك علي يا سيدي
فالأطفال في بنغلادش - أو ما شابهها -
يموتون لتأكيد صحة توقعات خبراء التغذية
والناس يدخلون السجون كي لا تتوقف منظمة العفو الدولية عن عملها
ويغدو أعضاؤها عاطلون عن العمل مثلي أو مثلك
وكي لا أستيقظ ذات صباح على هيئة صرصار أو حشرة مثل أبطال كافكا
أعلن مسبقاً، وتعلم أن الذي أوله شرط آخره ليس بالضرورة سلامة
قلبي الغارق في رغبته حتى العنق
مغلوب على موته مغلوب على قفاه
وأنا مغلوب على موتي مغلوب على قفائي كملاككم مهزوم على الحلبة
لقد غلبتني أيها الوطن.. غلبتموني أيها الأصدقاء
أيتها الشوارع المتواطئة والعدسات اللاصقة
أيتها النفوس الهرمة لقد غلبت
أيها العنفوان المريض لقد غلبت
سأختار المساء من الأزمنة
ومن الأشجار حورة يائسة
كتعبير لعدم رضاي عنك وعن نهارات وطني
لقد تعلم الشعراء الكذب من غيرهم
ولاحقاً من بعضهم - فهم يكذبون يا سيدي -
سيموت الشعر حتى يكف الشعراء عن الكذب
سأحكي لك قصتي
يجب إلغاء القوانين - الملغاة أصلاً - كي أحكي قصتي لئلا أكون عديمياً
يجب إنجاز قصيدة لأحكي قصتي كي لا أتهم بالشذوذ عن القاعدة
مثل سرحان الذي شرب القهوة في الكافتريا
وهو في طريقه للبحث عن مساعدات «إنسانية» من وكالة «الغوٲ»
أو وكالة الصحافة الفرنسية!!
سأخرج من جلدي كحبة ألغت سمومها
سأخرج من وطني كوطن ألغى سمومه

سأخرج من عوائى كريح ألغت سمومها
سأخرج من حزن زوجتى كأى رجل فقد شهيته
سأجيبك فى زيارة خاصة، ولو بدون دعوة منك
وأرجو أن تخرج من قبرك
فأنا لن أحاورك فى القبر ولن أشرب معك القهوة
وحتى لا أخرج شعورك يجب أن لا تأس يا سيدي
ولأجل أن لا تأس
سأحكي بعضاً مما جرى لي - وأرجو أن تفهمني -
«أخيراً فعلتها أيها المجرم» هذا ما أرادت صديقة
أن تقوله لي بعد ما علمت أنني قلت لفتاة أخرى صديقتي
«لقد فعلتها أيها المجرم» هذا ما قاله لي وطني
بعد ما قلت له انظر إلى نفسك فى المرآة وتأكد فربما يكون فجرك قدراً
«أخيراً فعلتها أيها المجرم» هذا ما قاله عني أصدقائي بعد أن
دخلت متاهتي وقلت لهم تخافون الحرية أيها العبيد
«لقد فعلتها أخيراً» هذا ما قالت صديقتي أمينة ذات يوم
بعد أن قطعت من شفيتها قبلة بسكين فمي
أريد أن أودعك يا سيدي
وسوف لن أقول إلى اللقاء، وسوف لن تغضب مني
لأنك على اطلاع تام بأحوالنا حيث
- لا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة -
لذلك لا تكن صديقي ولا تكن عدوي
فربما لا أستحق صداقتك مثلما لا أستحق عداوتك
وحين نرى المدن تكبر.. والعالم يكبر
فذلك لأننا نتضاءل
نتفرع إلى فروع تمتد إلى نهايات المدن
لندع النفط جانبا.. والقصائد جانبا.. ولندع أنفسنا جانبا
وسوف لن نرقص إذا صار العالم ديناراً رنينه موسيقا
سنرقص كلحيتك حين تعبت بها الريح
ولا بد يا سيدي أن أشدد على خصوصية فى كل ما عم
وعلى عمومية ما كان يخصني
لأنى صراحة لا أريد أن نتحاور ولا أن نتشاور
ولا أن نتقامر مثل دوستويفسكي من أجل حسناء تتمنع عن أسباب قوتها
تذكر دوستويفسكي يا سيدي

المقامر الذي غير العالم
الجمال الذي غير العالم
يجب أن يتغير العالم - هذا ما قاله الأقدمون -
يجب أن تتغير النباتات - هذا ما لم يقله داروين -
يجب أن يتغير الجمال
يجب ويجب ويجب... طريق إلى الحرية.. طريق إلى الحرية
حريتي أن لا أحترق في حلبجة
يجب أن لا أحترق في حلبجة.. يا سيدي

حلب - أواخر 1989